مركز ودور المرأة في الاسلام

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد
رئيس قسم التفسير والحديث وقسم العقيدة
والدعوة بكلية الشريعة والدراسات
الاسلامية - بجامعة الكويت

- **الأسرة في الاسلام كنظام للحب والرحمة المتبادلة**
- **تعليم ورعاية الأطفال...الخ**

١ ــ الاسلام نظام شامل وتنظيم للحياة متكامل من كل الوجوه، لا تجد في أسسه وقواعده ثغرة واحدة ينفذ منها إلى أن يقال: لو غير هذا لكان أحسن، ولو بدل كذا مكان غيره لصار يستحسن . وما ذلك الإحكام والا تقان والبعد عن الفطور والنأى عن التغييرات الا لأن مصدره الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور «الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» (١٤/ الملك) . فلو أن باحثا أو مجتهدا ألقى دلوه في دلاء المغترفين من بحار الاسلام فجاء مرة بحمأة وقليل ماء، فما ذاك الا لقصور جهده هو وكبو جواد فكره وعجزه عن مواصلة التقصى وتتبع المنابع الأصيلة للمورد الثرار، أو لعيب في غربه أو رشاه حال دون الوصول الى غايته والدنو من مبتغاه، فليحاول من يريد استكناه أسرار التشريعات الاسلامية في المجالات المختلفة أن يهيىء نفسه تهيئة كاملة وأن يعد آلات دراسته اعدادا خاصا خاليا من كل مأخذ يعاب أو يقرب من عيب، أقول هذا بمناسبة البحث الذي نحن بصدده، وهو: «مركز ودور المرأة في الاسلام»، فهو وان كان كما يبدو في ظاهره واضح المأخذ سهل المنال قريب الجني، الا أنه يحمل في طيات دراسته أسراراً توصل الباحثون الى شيء منها، وقصروا عن الوصول الى الكثير من أخبارها وحقائقها، وأن بحثا كهذا لا يكفيه ــ في رأيي ــ شهور

معدودات فضلا عن أيام قليلات حتى يكون ناضجا مثمرا كاملا شافيا للغليل قريبا من التمام ــ فالتمام والكمال لله وحده ــ وما حظى بحث فيما رأيت بجهد الموافق وعيب المخالف خلال القرنين الماضيين ــ ولا يزال ــ كما لقي ذلك الموضوع، موضوع النساء في الاسلام فكان من الناشئين بعيدا عن الاسلام وساحته، والذين أتيحت لهم فيما بعد دراسات اسلامية متعمقة نوعا ما في نظرهم وسطحية كل السطحية في نظرنا، هؤلاء يرون أن مما يعاب على الاسلام ــ وأستغفر الله فالاسلام لا عيب مطلقا فيه ــ بعضه ناشيء من موقف الاسلام من النساء، ناسين أو متناسين أن الاسلام لم يباين بين المرأة والرجل، ولم يباعد أبدا بينهما، ولم يحاول بأى شكل من الأشكال التقليل من مهمتهما المتكاملة في اسعاد هذه الحياة وجني ثمراتها الطيبة الكريمة، ثمراتها التي انضجها الله وخلقها وغذاها الله الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والمحبون الطيبون من أبناء الاسلام أو المجاملون لهم العاملون على تقريب الشقة بينهم لم يصلوا الى فهم ما أراد الله سبحانه من وجود المرأة مع الرجل وتعاونهما في هذه الحياة على ازالة شقائها واستكناه أسرارها والمضي بها قدما نحو الكمال المرجو والأمل المنشود، ولن يستطيع باحث عابر مهما أوتي من ذكائه ، ومهما فرعن فطنة وذكاء، أن يجلى للناس سر وجود الرجل الى جانب المرأة في النظام الاسلامي السوى، وانما يحصل في عمله الى مرحلة يتمها من يجيء من بعده وما ذاك الا لان أحوال الأعصر تختلف، وان كانت الاصول الاسلامية لا تتغير ولا تتحور الا في تقلبات حامليها وأحوال مبلغيها.. فلنستعن الله القوى القادر الفتاح العليم محاولين السير على دروب المخلصين لله دينهم الواثقين من رحمة ربهم وهدايته لعلنا نصل الى مايضيء تلك الدروب الموصلة الى أدراك حقيقة خلق الله تبارك وتعالى المرأة من جزء هام من أجزاء الرجل ليسكن اليها و يأنس بها و ينعم هو وتنعم هي بقرب كل منهما من الآخر، و بث منهما رجالا كثيرا ونساء، فالعامل البشرى هو الحياة والحياة هو، فمتى صلح صلحت وحين يفسد تفسد، فكم من مخلف ثروة طائلة لغر جاهل أفسدها، وكم من مخلف عاقلا متمرسا بالحياة فقيرا مدقعا عاد عليه الثراء دون حساب، وفي الوجود السابق والمعاصر أمثلة لا تحصى في هذا المجال يطول سردها، ونحيل العقلاء لادراكها على النظر في واقع الحياة بعين البصيرة، وصدق الله العظيم حين سجل ذلك في أصدق كتاب وأعظم تنزيل حيث يقول جل وعلا: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا» (النساء/ ١).

٢ ــ المرأة والرجل = انسان:

فما هو الانسان من حيث هو: لقد عرفه المناطقة قديما وماغير المحدثون في تعريفهم شيئا لأنه حقيقة واقعة لاتقبل الجدل ولا التغيير قالوا: الانسان هو الجسم النامى الحساس المتحرك بالارادة المفكر.. وتأمل قليل في هذا التعريف الجامع المانع نجده منطبقا على الرجل والمرأة على السواء، فكل منهما جسم يشغل حيزا من الفراغ وهو نام ينتقل من طور الى طور خلال السنين التي تمر به فكلاهما يكون جنينا وطفلا وفتى، و يافعا، وشابا، وشارخا، وكهلا، وشيخا، وكل منهما حساس يتحرك بارادته و يدرك ما حوله و يفكر و يعقل و يتدبر أمور صلاح الكون وفساده، ومضاره ومنافعه، من زاو ية لاتكاد تفترق ولاتتعارض، و بناء على هذا نجد كلا منهما يحس بالحرارة والبرودة، والشبع والجوع، والظمأ والرى، و يكتسي و يعرى، و يدرك معنى العلم والجهل، ومعنى فقه الشيء وادراك كنهه وسطحيته وظلاله في الوقت الذي لو انفرد أحدهما عن الآخر لقلت الفائدة من وجودهما وانعدمت أحيانا كما أنهما لو انفصلا لما اتسع الكون ولما نما وما كشف أسراره ولا أبدى عن كنوزه ومخبآته، فسيرهما يجب أن يكون كما شاء الله وأراد جنبا الى جنب ونجدهما كذلك في كل حقب الحياة في بدائيتها وفي رقيها وحضارتها وتقدمها بل وفي أحوال كثيرة من تقهقرها ونكوصها ولا يعيى الدارس لتطور الحضارات ونمو الانسانية في البحث كثيرا ليجد الأمثلة الواضحة الصارخة لكل ما أشرنا اليه فما عاش رجل الا ومعه امرأة، وما وجدت امرأة إلا والى جانبها رجل، فما الذي أثار أحدهما على الآخر حتى هضم حقوقه واعتدى عليه في خصوصياته والزمه وضعا لم يلزمه الله سبحانه اياه، ولم يدله عليه؟ ذلك سؤال جوابه معقد يحتاج الى طول دراسة ومزيد عناء في تلك الدراسة، ولكن لابد من بروزه والوصول اليه وان طال زمان الباحث وتعددت وسائل الدارس.

٣ ــ الزوجية: والزواج في هذه الحياة متمثل في كل شيء يقول الله العليم الحكيم: «ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين لعلكم تذكرون» (الذاريات/ ٤٩) وكل زوجين متعاونان في المجال الذى أوجدهما الله جلت قدرته له، فالجماد فيه تزاوج، وعناصر تكو ينه أزواجه، والماء كذلك مركب من مختلفها حتى صارت بقدرة بارئها كذلك ومن اجتماعها ظهر في الوجود كل حى «وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون» (الأنبياء/ ٣٠)، والنبات أيضا تزاوجه ظاهر، وتعاون أزواجه باد للعيان، فلا يحتاج لبرهان ولولا

تلاقى الازواج فيه لما وجد حب ولا قَضْبٌ ولا زيتون ولا نخل، وحتى الهواء الذى نحسه ولا نراه هو مخلوق من عناصر متعددة تحولت بقدرة القادر جل اسمه مصدر حياة للوجود، وقل ذلك في كل شيء تراه و يقع تحت حواسك أو اختفى و بدت لك منافعه، يقول العليم الحكيم الذى أتقن كل شيء خلقه: «والذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون» (الزخرف/ ١٢) و يقول جل شأنه: «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون» (يس/ ٣٦) ولا يخفى لدى عاقل متبصر ما في قوله جل وعلا «ومما لا يعلمون» من الاعجاز العظيم والإخبار بما سيكون مما أكنه الله سبحانه في علمه المحيط بكل شيء، فقل لى بربك ما هي مقاييس وجود تلك العناصر ونسبها بعضها الى بعض حتى صارت أو تصير الى ما نعلم وما يمكن أن نعلم؟ الا تعلم أن علماء كل تخصص جمادا كان أو نباتا أو حيوانا أعجم يؤكدون أنه لو بغى عنصر على عنصر لزال انتاجهما و بطل عملهما وامحت فائدتهما معا وانما هى نسب وجدت بقدرة العليم الحكيم المدبر المنشىء لكل شيء لا تُتَجاوز، ولا تُتَعدى، ولا ينال أحدها من منزلة صاحبه، وتلك هي وسيلة الانتفاع بمختلف الموجودات على تباينها.

٤ ــ ونخلص من تلك المقدمات ــ ان اعتبرتها كذلك ــ الى التساؤل عن سر عدوان الرجل على صاحبته وصنوه والجزء من جسمه المادى، وما منشأ ذلك العدوان الذى حمله على اذلالها حينا واهمالها دهرا وقهرها زمانا وسجنها في الظلام أياما وليالى طالت أو قصرت؟ ولو كان ظلمها صادرا من عنصر اخر من عناصر الوجود أو مادة غير الانسانية أو حيوان مخالف لقلنا لعل له عذرا وأنت تلوم، ولكن اذا صدر الاعتداء من الأقربين من نفس المادة من عين الهيولي والجسد من ذات اللحم والدم فذلك هو البلاء المبين الذي تعدى فيه الرجل حدوده وانتسب الى غير فصيلته، وقد تلقته المرأة بالصبر حينا و بالثورة أحيانا، وقديما قيل:

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وهنا يجب أن نعود الى ديننا في صفائه، في نوره، في سلاسته وسلامته من الافكار الدخيلة، والعادات المعادية، والآراء الوافدة تعود اليه في سيرة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم وسلوكه، وفي عهد خلفائه الراشدين وعدالتهم في مختلف الأعصر التي مر بها الاسلام، وهنا نجد العلاج الشافى لأدوائنا والبلسم الناجع الذي يرد الى وضعنا صوابه والى مجتمعنا

قوته وترابطه وائتلافه رجالا ونساء بنين و بنات، شيبا وشبانا، فالاسلام في أصوله النقية الطاهرة «القرآن والسنة» يدعو و يؤكد الى استواء المجتمعات الانسانية على أسس من الحرية والكرامة والخلق القويم، فالدين هو العبادة والطاعة وخلوص كل شيء لله رب العالمين، والحياة هي الوجود الذي تستمر في ليله ونهاره ونتقلب فيهما كدا وكدحا وسعيا كريما لبناء مقومات الحضارة الانسانية الكاملة، والحرية هي تجاوب الانسان بنوعيه مع هذا الوجود في حدود لاتضر الآخرين ولاتمس كياناتهم القويمة حتى يلقوا الله في مستقر رحمته «يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه» (الانشقاق/ ٦) فالكل عامل في حقل الوجود الى أجل تحت راية الاسلام حيث لا ظلم ولا ظالمين.

٥ ــ في صدر الاسلام ساهمت المرأة في كل شيء يمس وجود المسلمين، وأظهر ما كان في ذلك العهد الكريم هو ما هو كل شيء يقوم الحياة في كل زمان ومكان هو العلم، هو التعلّم والتعليم، هو خدمة الآخرين، ومعاونتهم في كل مجال. فانظر يا أخي الى أسرة سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أول نشوئها على أرض مكة المكرمة، من أقامها؟ من ساهم فيها؟ من نماها؟ من أمدها بكل مقومات الحياة بل وعصب الحياة؟ ذلك الانسان الذى فعل ذلك هو خديجة بنت خو يلد، أنظر كيف ساعدت سيدها وسيدنا حبيبها وحبيبنا محمدا في غدوه ورواحه الى غار حراء متعبده وخلوته مع الله سبحانه، مع هذا الكون الفسيح مع سمائه وأرضه وجباله واوديته، مع صفائه وغيومه مع كل ملابساته، ثم ماذا؟ ها هي ذى رضى الله عنها تتلقاه يوما وقد عاد مضطرباً مرتعدا لايدرى ماذا يراد به ولا يعلم مايضمره له الغيب، عاد من مفاجأة غريبة على ارضه، فلم تحدث من قبل ذلك في بيئته ولا في أمته ولا في قومه فضلا عن بلده مكة المكرمة، عاد من ملاقاة رسول الله الأمين جبريل يأمره أن يقرأ وما هو بقارىء فماذا كان من أمر السيدة الأولى في الاسلام؟ قالت: هون عليك يا محمد وأرح نفسك في نوم هادىء وفراش معد لك ودعنى أحدثك بما يخالج نفسى، يا محمد من أنت؟ أنت خير من مشى على هذه الأرض وأفضل من جاب دروب مكة، وأحكم من أظلته سماؤها ورعته نجومها، طالما حملت كلاّ، وأكرمت ضيفا، و وصلت رحما وأعنت ذا حاجة، يا محمد والله لا يخزيك الله أبدا، ياعجبا لك يا أماه يا أم المؤمنين، ها أنت تدخلين الطمأنينة على قلب الرسول المصطفى، وها انت تضعين لبنة كريمة في أسس الاسلام ذلك الدين الالهى دين رب العالمين الذي سيحكم الكون و يدبر أمره، وليتها وقفت عند هذا الحد من القول بل أتبعت قولها بالعمل فصحبت زوجها الحبيب الى ابن عمها العالم

الجليل، وتسأله يا ابن العم اسمع من ابن أخيك و يدور بينهما حوار سجلته السنة الشريفة وكتب التاريخ وكتابات السيرة المطهرة.

ودع خديجة رضى الله عنها تلقى ربها ولا أطيل بذكر كل امهاتنا أمهات المؤمنين، فقل لى بربك أين أنت من عائشة العالمة، المعلمة، الدرة المضيئة في حياة سيدها رسول رب العالمين و بعد وفاته، وأم سلمة وحفصة ومارية والكل فقد تحدث عنهن التاريخ حديثا عجبا وعطر أسطره بسيرتهن مجاهدات في نشر الدعوة مساهمات في الغزوات الحربية قائمات في مسالك السياسة والقيادة، موجهات مصححات لأخطاء الرجال من أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلولا هؤلاء الأمهات أمهات المؤمنين الطاهرات لضاع كثير من آثار حبيب الله سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان لهن دور فعال في ارساء قواعد الحضارة الاسلامية في أول عهد الدنيا بالاسلام بالرسالة المحمدية.

٦ ــ طائفة أخرى من الصحابيات الجليلات لسن من بيت النبوة ولكنهن رضعن لبانها فبرزت أعمالهن الفاضلة العاملة في بناء المجتمع الاسلامي الأول، وهنا لا يمكن الاحصاء الكامل لكلهن وانما نعرض لبعضهن على أن يكون لذكرهن جميعا رضى الله عنهن مجال آخر، فاذكر معى يوم الهجرة الكبرى وتذكر صنيع أسرة أبى بكر الصديق قبل أن يصاهرها المصطفى صلى الله عليه وسلم وماقامت به ذات النطاقين، ولأسماء بنت أبى بكر موقف لا ينساه التاريخ أبدا فاستعجلك في الحديث عنه وان كان مكانه لما يأت بعد في حديثنا هذا: ذلك هو موقفها من ابنها عبد الله بن الزبير يوم هاجمه بمكة الحجاج بن يوسف الثقفى؛ فقد دخل عليها ولدها عبد الله ليودعها الوداع الأخير وكانت قد تجاوزت المائة وعمى بصرها فقالت من الطارق؟ فقال عبد الله، فتشممته بأنف الأم الرؤوم ثم قالت: يابنى مت كريما، فقال لها: ان الحجاج قد أمننى، قالت: يابنى لاترضى الدنية فان الموت لابد منه، إن اليوم وإن غدا، فقال: إنى أخاف ان يمثل بي بعد موتي، فقالت: إن الكبش إذا ذبح لم يأمن السلخ، فخرج من لدنها مقاتلا حتى قتل، ولما طال صلبه على الأعواد خرجت صائحة تقول: «أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟».

واذكر يا أخي أم حكيم بنت الحارث المخزومية فهى مجاهدة شهدت يوم اليرموك وأبلت بلاء حسنا فقاتلت أشد القتال وخرجت بعمود الفسطاط فقتلت به سبعا من الروم يومئذ، والربيّع بنت معوذ تلك الصحابية الجليلة التي غزت مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم فداوت الجرحى وكانت ترد القتلى الى المدينة كما روى الطبرى في تاريخه، وأم عمارة نسيبة بنت الحارث الأنصارية التي كانت تغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا، وقد شهدت هي وزوجها وأبناؤها موقعة أحد، فكانت في أول النهار تسقى الجرحى ولما انهزم المسلمون اقتربت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذت ترمى بالقوس وتضرب بالسيف حتى خلصت اليها الجراح، ولما حاول ابن قميئة الاقتراب من رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترضته ام عمارة فضربها وضربته، وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لمقام نسيبة يومئذ خير من مقام آخرين» وهى تقاتل أشد القتال وانها لممسكة بالسيف حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يوم أحد «ما التفت يمينا ولا شمالا الا وأنا أراها تقاتل دونى».

٧ ــ ولعل لنا في معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه الأسوة الحسنة والقدوة الكريمة، فقد كان صلى الله عليه وسلم لين الجانب معهن حسن العشرة لهن سهل الانقياد لما يردن فيما لايغضب الله رب العالمين، وكن يراجعنه في كثير من الأمور حتى أصبحن قدوة النساء المسلمات في هذا المجال؛ و برهان ذلك ماحدث لعمر بن الخطاب يوما حين احتجت عليه زوجته لدى صده اياها عن مراجعته وفي هذا يروى صاحب (السمط الثمين ص ١٨٣) قول عمر رضى الله عنه: «والله انا كنا أهل جاهلية مانعد النساء شيئا ولانقيم لرأيهن وزنا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ماقسم، فبينما أنا في أمر أأتمره إذ قالت لى امرأتى: لوصنعت كذا وكذا، فقلت لها: ومالك أنت ولما هناك؟ وماتكلفك في أمر أريده؟ فقالت: عجبا لك يا ابن الخطاب لاتريد أن تراجع أنت وان ابنتك «تعنى السيدة حفصة بنت عمر رضى الله عنه» لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان، قال عمر رضى الله عنه: فأخذت ردائى حتى دخلت على حفصة فقلت لها يا بنية انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله انا لنراجعه، فقلت تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله عز وجل وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة رضى الله عنها لقرابتى منها فكلمتها فقالت لى: عجبا لك يا ابن الخطاب: قد دخلت في كل شيء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه؟ فأخذتني أخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت اجد فخرجت من عندها».. وقد جعل الرسول الكريم للمرأة المكانة المثلى في الاسلام حتى أنه كان يجير من تجيره كما يفعل مع الرجال سواء بسواء، روت ذلك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها

فقالت: «ان كانت المرأة لتُجيرُ على المؤمنين فيجوز» وقد أجارت أم هانىء بنت أبى طالب رجلين من المشركين من أحمائها كانا أسيرين فأجاز الرسول صلى الله عليه وسلم جوارها وقال: «أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت يا أم هانىء» وهو حديث مشهور رواه تفصيلا ابن هشام في سيرته وغيره من المؤرخين، ولا غرابة في ذلك ولا مظنة (فالنساء شقائق الرجال).. وأما مبلغ علم المرأة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم فيكفى فيه أن نراجع ما استدركته عائشة على الصحابة.

ومع كل هذا فقد جعل الله سبحانه للرجل مجالا خاصا به يسلكه تنموبه الحضارات وتتقدم، وجعل للمرأة مجالا خاصا أيضا تستقيم به أمور الحياة وتزدهر في ظل حضارة متطورة مسعدة للانسانية بشقيها الرجال والنساء، وهناك أمور مشتركة بينهما يبدو فيها التعاون قو يا واستفادة أحدهما من الآخر واضحة جلية، كما أن كل عناصر الوجود لها مسالك قد تكون متلاقية أحيانا ومتباينة أحياناً أخرى وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والمرأة المسلمة قد ساهمت مساهمة فعالة ــ ولا زالت ــ في تطور الحضارة ونموها، مساهمة الرجل في نفس السبيل والغاية والهدف، وسار كل في مجاله الذى هيأه الله له ومن أعلم من الله بخلقه، وليس وراء توجيه الله توجيه، وليس لأحد رأى مع النص البين.

ــ **ولتوضيح مركز المرأة في الاسلام.** نقرر هنا موقف الاسلام من المرأة ثم نتابع دراسة أعمال البارزات من المؤمنات خلال الأعصر التي خلت، مقتصرين على ذوات الفعالية الممتازة في ارساء أسس الحضارة الاسلامية عن طريق مقوماتها الاصيلة من العلم والتعلم، والمؤسسات الاجتماعية التي قامت على سواعدهن وبمساهمتهن الفعالة:

أ ــ **أما مركز المرأة في الاسلام فالحديث عنه شيق ممتع** يتشعب تشعب أوضاعها المختلفة: فالمرأة: أم أو أخت أو بنت أو زوجة ثم ذات رحم في قرابات حددها الاسلام.

وللأم مكان الصدارة في المودة والحب والتقدير ولها القدح المعلى، والمنزلة الاولى في قلوب بنيها، جعل لها القرآن الوضع الكريم الذي لا يدانيه وضع شخص غيرها مهما كانت منزلته، وأبرز اعمالها ومعاناتها في الحمل والرضاعة والولادة ونص نصا صريحا

لا يقبل التأويل على علو مكانتها ووجوب رعايتها حين تحتاج الى الرعاية، فقال جل شأنه: «ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير» (لقمان/ ١٤) وقال سبحانه: «ووصينا الانسان بوالديه إحْسَاناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى في ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين» (الأحقاف/ ١٥)، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد فضلها على الأب في وصيته المشهورة: فقد رُوِى في حديث متفق عليه عن أبى هريرة ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك» وفي رواية زيادة: «ثم أدناك فأدناك» وروى أحمد والبخارى في الأدب المفرد، وأبن ماجه وصححه الحاكم قال صلى الله عليه وسلم: «ان الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب» وفي حديث أبى رمثة عن أحمد وأصحاب السنن الثلاثة والحاكم واللفظ له: قال: انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول: أمك وأباك ثم أختك وأخاك ثم أدناك أدناك».

وفي حديث عائشة رضى الله عنها عند أحمد والنسائى والحاكم وصححه قالت: سألت النبى صلى الله عليه وسلم: أى الناس أعظم حقا على المرأة؟ قال: «زوجها» قلت: فعلى الرجل؟ قال: «أمه» وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابي داود والحاكم أن امرأة قالت يارسول الله ان ابنى هذا كان بطنى له وعاء وثديى له سقاء وحجرى له حواء وان أباه طلقنى وأراد أن ينزعه منى، فقال صلى الله عليه وسلم: «انت أحق به مالم تنكحى» وفي حديث أنس عند القضاعى والخطيب في الجامع «الجنة تحت أقدام الأمهات» وفى معنى هذا الحديث ما رواه الطبرانى عن طلحة بن معاوية السلمى قال: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم، فقلت: يارسول الله: انى أريد الجهاد في سبيل الله «قال: «هل أمك حية»؟ قلت: نعم، قال: «الزم رجليها فثم الجنة» وقال لرجل آخر مثله: «فالزمها فان الجنة تحت رجليها» وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو أنه قال لرجل استأذنه في الجهاد «أحي والداك»؟ قال: نعم؛ قال: «ففيهما فجاهد».

«وأما عن عقوق الوالدين فقد عده صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر، وخص

الأمهات بالذكر فقال: «ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنع وهات (١) ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، واضاعة المال» رواه البخارى من حديث المغيرة، وفى حديث متفق عليه قال صلى الله عليه وسلم: «الا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا، قلنا: بلى يارسول الله، قال: «الاشراك بالله وعقوق الوالدين... الـــــخ».

وأما منزلتها وحقوقها بنتا وأختا فما أكثر الأحاديث الشريفة الواردة في الحث على أكرامها وهي في هذا الموقع، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت فدخل النبى صلى الله عليه وسلم علينا فأخبرته فقال: «من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن كن له سترا من النار» رواه البخارى ومسلم: وفي لفظ آخر: «من ابتلى بشيء من البنات فصبر عليهم كن له حجابا من النار» وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: «جاءت مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فاعطت كل واحدة تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد ان تأكلها بينهما فأعجبنى شأنها فذكرت الذى صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ان الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها من النار» وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ــ كهذا ــ وضم أصابعه معا»، رواه مسلم والترمذى بلفظ آخر هو: «من عال جاريتين دخلت انا وهو الجنة كهاتين» وأشار بأصبعيه، وفي صحيح ابن حيان قال: صلى الله عليه وسلم: «من عال ابنتين أو ثلاثا أو أختين أو ثلاثا حتى يبلغن أو يموت عنهن كنت أنا وهو في الجنة كهاتين» وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم له ابنتان فيحسن اليهما ماصحبتاه أو صحبهما الا أدخلتاه الجنة» رواه ابن ماجة باسناد صحيح، وروى الطبرانى عن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبلغن أو يمتن الا كن له حجابا من النار» فقالت له امرأة: أو بنتان؟ قال: «أو بنتان» وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وأتقى الله فيهن فله الجنة» رواه الترمذى واللفظ له، وأبو داود، الا أنه قال:

---

(١) معناه: منع آداء الحق إلى أصحابه وطلب ماليس بحق.

«فأدبهن وأحسن اليهن وزوجهن فله الجنة» ورواه ابن حيان في صحيحه وفي رواية للترمذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لايكون لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن اليهن الا دخل الجنة» وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء» رواه الطبرانى، و بجمع الخير كله في هذا الصدد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حَجَّة الوداع: «ألا فاستوصوا بالنساء خيرا».

وأما موقع المرأة «زوجة» فهذا هو المحل الأرفع، والدرجة العليا في قمة النظام الاجتماعي الاسلامي، وذلك حين يلتقى الرجل بالمرأة شقيقته وعيبة سره وأنسه في الحياة ليتخذها زوجة وتتخذه زوجا، يسكن كل منهما الى صاحبه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انما النساء شقائق الرجال» رواه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم، وفي أصل الوجود الإنساني شاركت حواء آدم في كل شيء، وجاء ذكرهما في القرآن الكريم معا متلازمين، قال الله تعالى: «وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (البقرة/ ٣٥) ولما أكلا من الشجرة أكلا منها معا وكانت وسوسة الشيطان لهما معا، قال تعالى: »فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» (طه/ ١٢١) وقال سبحانه: «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه» (البقرة/ ٣٦)، وقال: «فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما» (الأعراف/ ٢٠)، ثم تابا عن خَطِيئَتِهِمَا معا (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (الأعراف/ ٢٣) فهما متلازمان في كل مسالك حياتهما ودروبها، وكذلك في ثواب العمل والجزاء؛ «من عمل صالحا من ذكر او أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» (النحل/ ٩٧) وحفظ الله أعمالهما الصالحة سواء بسواء، قال الله تعالى: «فاستجاب لهم ربهم أنى لااضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» (آل عمران/ ١٩٥) وقد ورد ذلك صريحا جدا في سورة الأحزاب في الآية (٣٥) قال الله تعالى: «ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيماً» وهكذا نجد دائما جزاء المؤمنات هو هو جزاء المؤمنين سواء بسواء لاتغيير ولاتبديل ولاتمايز، ولا اختلاف

قال الله تعالى: «من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب» (غافر/ ٤٠)، وقال سبحانه: «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا» (٤/ ١٢٤)، وقال سبحانه: «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم» (٩/ ٧٢).

وفي بدء الاسلام بايعت النساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بايع الرجال من قبلهن، وجاء ذلك مذكورا في كتب السيرة والاحاديث الشريفة ورواه المؤرخون جميعا وحكاه القرآن الكريم حيث يقول الله جل وعلا: «يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم» (الممتحنة ٦٠/١٢).

وللمرأة كافة الحقوق التي خولها الله للرجال، فلها حق التَّعلم والتعليم وحق التعاقد والالتزامات والتملك والمتاجرة وكل الأحوال المدنية فيما لا يخالف نصا ولا قاعدة اسلامية كالرجال حذوك القذة بالقذة الا فيما اختص به الرجال من حمل السلاح والقتال والأعمال الشاقة البدنية العضلية، كما أنها عند الضرورة قد حملت السلاح وقاتلت كما حدث في غزوة أحد دفاعا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مضى الحديث عنه في موضوعنا هذا.

ولما كان الزواج هو أهم شيء وأخطره في حياة الرجل والمرأة فقد أعطيت فيه من الحقوق ما اعطى للرجل وأدلتنا و براهيننا من سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقواله.. وحين يشيد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرأة الصالحة و يدعو الى التنقيب عنها في كل مكان: لا يغفل أمر الرجل الصالح بل و يدعو المرأة وولى أمرها الى البحث والتنقيب عن الزوج الصالح والبعد عن الفاسقين والفاسقات، ولم يلزم مطلقا امرأة بالزواج من رجل لا تطيقه أو رجل يعمل عملا غير صالح فيقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» رواه الترمذى عن أبى هريرة، ولأبي داود في المراسيل: «اذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه

فأنكحوه»، ومراجعة يسيرة لكتب الحديث الصحيحة نجدها ملآى بالأحاديث الشريفة التي تحث على ان يكون زواج المرأة برضاها وتحظر أن تزوج البالغ العاقلة بغير رضاها، فان كانت بكرا فاذنها صماتها كما نص الحديث الشريف المتفق عليه، وان كانت ثيبا فلا بد من قبولها نطقا ولفظا باللسان لأن الحياء يغلب على البكر فتتعثر في الكلام أو تربأ بنفسها عن التصريح، وأما الثيب فقد زال عذرها بعد التجربة الأولى او الثانية، فقد ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يستأمرن في أبضاعهن وان الثيب يعرب عنها لسانها وأما اشتراك ولى الأمر في اختيار الزوج فمن باب الاستئناس برأيه لانه أعلم بأمور الناس وأكثر تجربة، والمرأة أقل منه اطلاعا على الأحوال العامة، وقد روى أن فتاة من الأنصار دخلت على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وشكت اليها أباها قائلة: إن أبى يريد أن يزوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته فأمرتها أن تنتظر قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم وتبثه أمرها، فلما حضر عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وقصت عليه الفتاة ما كان من أمرها (جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر اليها)، فقالت الفتاة: يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى وانما أردت أن أعلم النساء أنه ليس الى الآباء في هذا الامر من شيء، أى ليس لهم اجبار بناتهم على الزواج ممن لا يرتضينه، رواه أحمد والنسائى من حديث بن بريدة ورواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ولقد قرر الفقهاء أن ولى البكر اذا كان أبا أو جدا فأمره ماض لأنه بعيد عن الاتهام بسوء الاختيار، وقرر الامام أبو حنيفة رضى الله عنه أن للمرأة أن تزوج نفسها متى شاءت بشرط أن يكون زوجها كفؤا لها كفاءة شرعية وليس لوليها حق الاعتراض الا اذا فقدت تلك الكفاءة وذلك حفاظا عليها وعلى حقوقها قِبَلَ من اختارته زوجا، ومنع الاسلام عضل النساء أى منعهن من الزواج مطلقا وتلك كانت عادة جاهلية، قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن» (النساء/ ١٩)، وقد روى البخارى بسنده الصحيح المتصل عن معقل بن يسار قال: «كانت لى أخت تخطب الى (أى يخطبها الرجال منى) فأتانى ابن عم لى فأنكحتها اياه ثم طلقها طلاقا له رجعة ثم تركها حتى انقضت عدتها فلما خطبت الى ــ أى من رجل غير ابن عمها ــ أتأتى ــ ابن عمها ــ أى زوجها الأول ــ يخطبها فقلت: لا والله لا أنكحها لك أبدا، قال ففىَّ نزل قول الله تعالى «واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلك أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (البقرة/ ٢٣٢).

والمتأمل في تعاليم الاسلام الصريحة الصحيحة في بدء العلاقة الزوجية يجده قد وضعها في أكرم موضع وأجله وحاطها بما يسعدها كل السعادة لانها منبت الأسرة الاسلامية ومنشؤها فهى مكان التراحم والمحبة والتواد والتعاطف في أسمى صوره وأعزها، فالزوجان المتكافئان شرعا في كل شيء لاتوجد بينهما ثغرة ينفذ منها خلاف أو يدب نفار أو يحل شقاق، فأساسها التقارب في المنشأ والوضع الاجتماعى والثقافة، وكلما قويت تلك العوامل مع فورة الشباب وقوة البدن وسلامته كلما ازداد التلاحم بين الزوجين واندمجا كلية في مسلك حياة متحد، وتأمل مدرك لمعانى الآيات الكريمة الواردة في تنظيم أساس الأسرة يعطى تصورا كاملا لما يريده الاسلام لها من السعادة واقصاء عوامل الشقاق بعيدا عنها، قال الله تعالى: «ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الروم/ ٢١) فجعل سبحانه الزوجة من جنس زوجها ليأنس اليها وألقى بينهما المودة والرحمة لتدوم حياة الأسرة على أحسن نظام وأكمله وأقواه ثباتا واطرادا، فهي حياة مبنية دعائمها على الحكمة والمصلحة، ولم توجد هكذا على هذا الوضع عبثا أبدا، وانما خلقت لأغراض كثيرة متنوعة تحتاج لادراكها الى اعمال الفكر مع الذكانة والعقل الراجح، وقال جل شأنه: «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها..»(الأعراف/ ١٨٩) أى هو الله الذى خلقكم أيها الرجال والنساء من جنس واحد وجعل زوجة الرجل من جنسه فكانا زوجين ذكرا وأنثى.. كما ورد في آية أخرى: «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير» (الحجرات/ ١٣).

فاتحاد المنشأ يوجد الحب المقوي للترابط الكريم و يزكي التراحم المتبادل الحارس لذلك الحب، و ينتج عن ذلك الاندماج الكيانى والاتفاق العاطفى وتأصيل الأواصر لقاء يثمر بقاء الحياة ودوام الوجود واستمرار التجدد وفورة الحضارة ممثلا ذلك في الأبناء الذين هم أعز وأثمن شيء يحرص عليه الآباء، فاذا كان الوالدان متحابين على قلب انسان واحد، نشأ الاولاد متحابين في هذا الوسط الهادىء المتكافل المتعاون الذي يضمن للوجود استمراره وتطوره الى الأفضل فالأسرة هي المكان المقرر المهيأ تهيئة طيبة لتحصين الصغار ضد كل الأخطار التي تحيط بمجتمعهم، ومساعدتهم على تكوين الارادة القوية الصامدة لصدمات المستقبل، ومما لاريب فيه أن مرجع نجاح كثير من قادة البشرية الى تكوين الأسرة تكوينا كريما متناصرا في كل مسالك الكمال، متعاضدا في دفع الشرور التي تقترب من ساحة أسرهم وكثيرا ما كان اختلاف الوالدين مصدرا سيئا لسلوك الأطفال.

والأم ركن أساسي في محيط الأسرة ولاريب، فكما تغذى وليدها بلبانها تنشيء أخلاقه الكريمة بتوجيهها وحسن ريادتها:

الأم مدرسة اذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

ولا يَطُنَّنَّ ظان أن مهمة الوالدة في بيتها سهلة ميسرة ، كلا فانها شاقة عسيرة الا على من يسرها لها الله سبحانه، فالرعاية في التغذية والأخلاق والتعليم المبدئي والسلوك الوقائي أمور معقدة تحتاج الى صبر وطول أناة ولا يقدر على ذلك الا أم آمنت بربها ووطنها وقومها وأسرتها، تسهر ليلها وترهق نهارها في رعاية الاسرة والحفاظ عليها، كما أنها مسئولة مسؤولية كاملة عن رعاية كل ما يخص أسرتها في نطاق بيتها (فالمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها)، وفي هذا الموقع الكريم يكون دور الأب التعاون التام مع الأم، فهما يفهمان أبناءهما ويحولان بحكمتهما بين أولئك الأ بناء و بين الاندفاع الشائن سلوكا وعملا وموقعا، والرجل هو راعي الأسرة من الخارج يجلب لها القوت و يسهر على مصالحها و ينمي ثروتها و يرعاها ضد الأخطار الخارجية المؤذية أدبيا وماديا، و بهذا تنمو الحضارة وتقوى أركانها بقوة الناشئة على اكتشاف أسرار الكون ومايدفعه قدما نحو وضع حضاري أرقى وأعظم مما ورثوه عن الأجداد وعرفوه عن الآباء، ونخلص من كل هذا الى أن مكان المرأة الزوجة في بيتها هو أسمى مكان، وفي وضعها الاجتماعي أجل وأهدى سبيلا، وأعظم شأنا وأقوم قيلا.

ولقد مرت بالتاريخ في حقبه المتعاقبة وأعصره المتطاولة نساء كريمات كان لهن الحظ الأوفى في نمو الحضارة وتقدمها ونشأ ذلك من تعاونها الكامل مع شقيقها الرجل، فكما أسلفنا (النساء شقائق الرجال) فحين عزّ بها بنوها ونهضت بها أسرتها قدمت للدنيا الفاضلة رجالا عمروها وزانوها بعلمهم ومخترعاتهم و بحوثهم التي يعيى السارد لها عن الوصول الى مقدارها، وحين حرمت ــ لأمر خارج عن ارادتها ــ من أسرتها أى حين لم يكتب لها أن تشاطر رجلا أسرة وخرجت لتساعد في نهضة المجتمع والعمل على استقامة الحياة نجحت وفازت باحترام مجتمعها وذلك بسيرها في حدود اختصاصها الذي خلقت له فأنشأت الجمعيات المختلفة لاغاثة المحتاجين والمحتاجات، وتعليم الجاهلين والجاهلات والأخذ بيد المعوقين والمعوقات، وتثقيف الأطفال والناشئة في حدود قدراتهن، ومنهم من وليت أعمالا عامة في مواقع علمية مسؤولة فأدت رسالة كريمة للمجتمع وأرست قواعد ممتازة ثابتة في منشآت عامة نافعة للناس رجالا ونساء على السواء.

«فالاسلام لا ينقص المرأة شيئا من حقوقها ومساواتها بالرجل في الحقوق العامة باستثناء قيادتها للدولة ، والنصوص الشرعية لا تحول دون تمتعها بكافة الحقوق ولكن في اطار الضوابط الاسلامية التي تحول دون أن تصبح المرأة سلعة في الأسواق السياسية والتجارية» (٢).

قال الله تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم» (التوبة/ ٧١)، فقد أثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين فيدخل فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالى والاجتماعي وولاية النصرة الحربية والسياسية الا أن الشريعة الاسلامية لم تلزمهن بالقتال الفعلى وحمل السلاح، وان كانت بعض الصحابيات الجليلات قد قاتلن وجرحن دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكن رضى الله عنهن يخرجن في الغزوات كلها مصاحبات الرجال أزواجهن وأبناءهن، يسقين الماء و يقمن باعداد الطعام للمجاهدين، و يضمدن الجرحى منهم، ويحرضن الرجال على القتال والاستشهاد في سبيل الله سبحانه، وقد ورد في صحيح البخاري أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت تحمل الماء هي وأم سليم في غزوة أحد وكانتا تغسلان جراحات المصابين من المجاهدين المسلمين، غير أنه لم يفرض عليهن حمل السلاح وقد أسقط عنهن وجوب القتال بالفعل، وان كان بعضهن قد حملن السلاح في ظروف اقتضت ذلك كما حدث من أم عمارة نسيبة بنت الحارث الأنصارية، ومرت بالتاريخ الاسلامي أسماء كثيرات ممن امتشقن الحسام وخضن المعارك فعلا ولم يمنعهن من ذلك أحد ممن عاصرهن من قادة المسلمين وساستهم وعلمائهم.

وأما مساهمتهن في تطوير الحضارة اجتماعيا وثقافيا وعلميا ودراسة فهذا أشهر من أن يذكر، فما مر عصر من عصور الاسلام الا وقد لمع فيه اسم مسلمة قامت بالتعليم والتدريس لبنات جنسها ومنهن من كانت لها ندوات خاصة تلقى فيها الشعراء والادباء وعلماء المسلمين تستفيد منهم وتفيدهم، وطالما أقامت المرأة المسلمة المراكز الخاصة بمساعدة الفقراء والمحتاجين، وأنشأت دور العلم في كل مكان (ومن أشهر الجامعات المعاصرة، تلك التي أسستها في شمال افريقية أمرأة مسلمة من أوائل المسلمات في القرن الثالث الهجرى

---

(٢) رشيد رضا، حقوق النساء في الاسلام، ص ١٢.

تلك هي فاطمة بنت محمد وكانت تكنى أم البنين، فقد بنت (جامع عدوة القرو يين) في يوم السبت، مستهل رمضان سنة ٢٤٥ هـ وغرست فيه الأشجار، ولا يزال قائما الى الآن، وقد شيد قبل بناء الجامع الأزهر بمصر بقرابة قرن من الزمان، وكثيرات كثيرات غيرها أقمن المساجد ودور العلم (٣).

والمرأة هى مصدر الحنان والرحمة في أسرتها ولولاها لما نشأت أجيال مهذبة قادرة على تحمل أعباء الحياة وسلوك درو بها الوعرة واجتياز فيافيها المقفرة المهلكة، وعمل الأم في احتضان الصغار وتقويمهن لا يساو يه أى عمل آخر يقوم به الرجل، اذ هي مرضعته وحاضنته ومر بيته وغارسة كل الكمالات في عقله منذ طفولته بل وقبل ذلك منذ كان جنينا في رحمها، و يا و يل الأطفال الذين تتخطفهم ايدي الحاضنات الأجنبيات فما أشقاهم وما أشد سواد مستقبلهم، لقد ثبت بالدراسة العلمية الدقيقة المستفيضة أن ذكاء الطفل ينمو وقدرته على الكلام تقوى وعقله ينمو و يشتد اذا نشأ بين أبو ين متفقين متعاطفين متحابين وأكرر قول العلى الخبير الكبير سبحانه: «ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أز واجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الروم/ ٢١)، فالرحمة والمودة تنتقل تلقائيا من قلوب الآباء والأمهات الى أطفالهم رجال الغد المشرق الباسم، ولئن كان عمل المرأة ونجاحها في كفكفة دموع الأطفال الغر باء عنها الذين يقدر لهم أن ترعاهم امرأة مؤمنة بعقلها وثروتها وثقافتها ظاهر بين في كل بلد قامت فيه جمعيات نسائية لا هم لها الا عون المحتاج ورعاية الضعيف، فما أعظم أثر المرأة الصالحة في بيتها و بين أطفالها وفلذات كبدها.

وهنا أريد أن الج الى بيت أسرة مسلمة حقا لم تدنسها آثار التوجيهات الجاهلية ولا سوءات الأقلام الغريبة عن الديار الاسلامية، ولا الأفكار ذات النزوع البعيد عن موارد الاسلام الطاهرة النقية السمحة، نحن الآن نرى اسرة مكونة من أبو ين وأولادهما بنين و بنات، تبدو على الجميع مظاهر الصحة البدنية والعافية العضو ية ليس فيهم من يشكو ألما ولا من ألمَّ به مرض، اعتدال في المطعم والمشرب عملا بقول الله تعالى: «وكلوا واشر بوا ولا تسرفوا» (الأعراف/ ٣١) ونضارة في الوجوه ونظافة في الملبس وتناسب في كل شيء فالنظافة من أسس دينهم الاسلام والوضوء مدخل الى الصلاة يبديهم غرا محجلين يتناولون

(٣) اعلام النساء، عمر كحالة، ص ١٠٧، جـ ٤.

طعامهم معا حين يصبحون و وقت الظهيرة وحين يمسون لا يتخلف عن المائدة أحد ولا يمد الصغير يده الى صحنه قبل الكبير، يتلقون من الوالدين آداب السلوك و يدركون من فعالهما جدوى التعاون وطيب الكلام وحسن اللقاء والوداع، ينال كل فرد منهم قسطه من حقوقه و يقوم بكامل واجباته يبدأون يومهم بالصلاة كما يهرعون اليها قبيل المنام، ولا تجد فيهم شاكيا ولا باكيا ولا متألماً ولا حاقدا ولا حاسدا، الكل يسعى لمصلحة الكل في طمأنينة كاملة ووفاء نادر تام، موسيقاهم تراتيل قرآنهم ودعابتهم بريئة يمزحون ولا يقولون الا حقا فِعْلَ سيدِ الرسل هادى البشرية ورحيمها.

هؤلاء تكفل رب الأسرة فيهم بكل مايلزمها من متاع وساعده في ذلك أبناء ذكور شبوا عن الطوق، وفي المحل الأرفع قامت سيدة الدار والدتهم برعاية كل مايلزمهم في داخل المنزل وما تدعو اليه الضرورة في اختصاصها خارجه و يعاونها على سير الحياة الكريمة بنات يحببنها و يلبين ماتريد منهن، لم يعقهن شيء عن تعلم مايهمهن من أمور الحياة في اتزان وذكانة ودءوب يزاولن حقوقهن الكاملة داخل مجتمعهن الصغير (الاسرة) كما يقمن بعمل كبير حيال المجتمع الواسع مجتمع المدينة في اختصاصهن تعمل احداهن طبيبة والأخرى معلمة وترعى كل منهما مع امها جماعات من المحتاجين الى معونتهن فيعلمن الجاهلات و ينشرن الرحمة بين اليتامى والأرامل ممن هن في حاجة الى عونهن، كذلك الأبناء يضربون في الأرض عاملين في مجال تنمية المجتمع وازدهار حضارة أمتهم.

فكان الجميع مصدر خير و بر ورحمة وتعاون وتعاطف لكل من سار على أرض وطنهم أو درج في رحابه، وما كانوا كذلك الا لأنهم فهموا روح الاسلام وطبقوا أحكامه في اطارها الكريم التقي الذى أوحاه رب العالمين الى سيد المرسلين وهنا أستطيع أن أقول: هذه أسرة مسلمة حقا مؤمنة صدقا لها سعادة الدنيا والثواب العظيم في الآخرة «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء» (الطور/ ٢١).

● ما السر في وصولها الى هذه الدرجة، درجة الخير لنفسها ثم لمن حولها من أمتها؟

والجواب: هو فهمهما (فهم الأب والأم) لحقيقة وجودهما في هذه الحياة وحقيقة مهمة كل منهما فيها وعدم تطلع كل منهما الى الاستحواز على عمل الآخر فالأب حصن الأسرة من الخارج والأم درعها الواقى من الداخل، ونشأ الأبناء على غرارهما فاستفادوا من

وجودهم وأفادوا الغير من حسن أعمالهم.. إذاً: الخير كل الخير في لزوم كل مخلوق اختصاصه الذي أعده الله له «ألا يعلم من خلق» (الملك/ ١٤) فلو شغل ممرض مكان الطبيب لهلك وأهلك غيره مع اقتران عملهما تكاملا، ولو عمل نجار حدادا لما أفلح، ولو أن مزارعا أراد أن يكون مهندسا لما صلح أمره، كما أنه لو تحول أيدروجين الى أوكسجين لما أنتجا، ولو عمل السالب عمل الموجب لما افلحا، ولو صار الليل نهارا أو النهار ليلا لما أفادا، فلكل وضعه وخلقته وعمله لو تعداه لهلك وأهلك.. وان الخير كل الخير في لزوم كل موضعه في هذا الوجود أقصد الموضع الذى أعده له رب العالمين وفيه الغنية والكفاية، كما أن فيه جودة الانتاج وصلاح العباد، وفي معاونة المرأة للرجل في ميدانها رفع للحضارة والمضى بها قدما.

ثم ننتقل الى أسرة أخرى: تزوج رجل وامرأة وأنتج زواجهما بنين و بنات، جئنا لزيارتهم ودرسنا اتجاهات الأب فاذا هو منحرف سيء السلوك، سوء سلوكه جاء من حبه لموضع امرأته يريد أن يقوم بأعمال البيت فيطهو الطعام و ينظف المنزل و يسلك مسالك النساء، والأم كذلك كارهة لما خلقت له فهى مغرمة بكل ما هو بعيد عن اختصاصها تريد أن تجول مع الناس وتصول، تود أن تخطط الشوارع وتقيم المبانى وتحرث الارض وكأن بينها و بين طبيعتها الأصيلة عداء مستحكما، والأولاد مضطربون فقدوا الموجه والقائد والمربى والناصح الأمين سلك كل منهم مسلكا بدأه مكرها ولبث فيه دهرا ولم يصل الى ما يريد، والبنت خرجت الى الحياة الخارجية لا يرعاها أحد ولا يأخذ بيدها ناصر تبحث عن المجهول و يتلفت الجميع يمنه و يسرة فيجدون أنفسهم منبوذين بالعراء لا صديق لهم ولا عاقل يقترب منهم فضاع الأب وهلكت الأم، وفسد الأبناء، مصدر هذا المصير السيء غفلة الأبوين عن سر خلقهما وعدم ادراك غاية وجودهما فأراد كل منهما في نزوة عارضة، وضيعة فكر، وفقدان قوة الادراك أن يتبادل كل مقعده مع الآخر فأحبَّ الرجل مكان المرأة ورغبت المرأة في مقعد الرجل تحت ستار مرفوض عقلا واجتماعيا وعرفا، فما استقامت أمورهم ولا استقرت أحوالهم، وانعكس ذلك على صغارهم فلم يفلحوا ومن هذه المصادر السيئة يخرج الغادرون المعادون لأوطانهم العاملون ضد أمتهم، ومثل هذه الأسرة سرطان في جسم الأمة يجب أن يجتث، وعضو فاسد لابد من بتره، فلو استمرت وتكاثر أمثالها لوجد في البلاد قطاع الطرق، واللصوص والعاطلون الذين يفسدون ولا يصلحون وهوت الأمة كلها الى قرار سحيق من الدمار ثم الفناء، الذى لا قيامة بعده.

فالأمة الصالحة هي من يتنبه قادتها الى مكامن الداء فيبيدونها قبل نموها

و يقضون عليها قبل انتشارها ويحاولون وضع كل شيء في موضعه من الأساس، وأساس كل أمة أسرها، رجالها ونساؤها بنيها و بناتها فحين يتجه كل فرد الى حقله الخاص به يعمل فيه ينتج و يفيد، ولو انحرف والتوى لاضطربت به السبل وهلك إن قريبا وان بعيدا، وليس من الحرية المقبولة ولامن الحكمة المعقولة أن يترك لكل حبله على غاربه وانما القوامة الحقة، والقوامة الفاضلة تقتضي رعاية حقوق كل انسان ذكرا كان أو أنثى واعطاء كلّ قوس الى باريها، ومجال العمل فيه متسع للجميع ولن يضيق بأحد، ولننظر الى الماضي نظرة متأمل عاقل يأخذ الأحسن مما كان فيه ويجافى السيء الذي أودى ببنيه، و يفكر بالمستقبل فيعمل و باخلاص على اعطاء كل فرد مكانه و يدر به على ما ينفعه، والتعاون لابد منه بين الذكر والأنثى حتى تستقيم أمور الحياة ويجيء النتاج طيبا صالحا مفلحا ناجحا دافعا للحضارة الحقة بقوة.

ولا يمكن بحال انكار ماقام به الرجال، ومافعله فضليات النساء المؤمنات وماقدمن من خدمة للمجتمع مثلا في أسرة خاصة نبغ وسما أولادها وأسرة عامة عولج فيها المحتاجون لعلاج، المصابين بمختلف الأدواء من فقر ومرض وجهل وما أجل وأعظم ماتقدمه أمرأة مخلصة مسلمة تعرف حقها حيال نفسها وربها ووطنها متضامنة مع رجل يقدرها قدرها و يقوم لها بحقها أما وزوجة وأختا و بنتا.

وأنى حين أنظر حوالي في المجتمع الذي أعيش فيه فماذا أجد مما عملته المرأة وماتعمله؟ لقد قامت المرأة في هذا المجتمع بمهمات ثقال فعلمت بنات جنسها في مراحل مختلفة فأتقنت كثيرات منهن القراءة والكتابة على يدى معلمات المكاتب جنبا الى جنب مع الرجل، وحفظت بيت زوجها و بنيها وكانت نعم الراعية لهذا البيت يوم كان يغيب عنها راعي بيتها شهورا بحثا عن الرزق حيث يكون في تجارة أو غوص أو غير ذلك من أمور الحياة التي استلزمت سفرا طو يلا.

وأما في عصر النهضة الكو يتية التي عاصرتها وهي تدرج فتية قو ية وتشب وتحتل مكانا عالميا مرموقا في كل مجال حضاري فقد ساهمت فيه المرأة مساهمة لاتنكر (٤)، وهأنذا

---

(٤) للمرأة في كل بلد إسلامي مشاركة كريمة في أعمال الخير منذ ظهور الاسلام الى يومنا هذا بدأها صحابيات جليلات حاربن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمن وثقفن أخواتهن في عهده الشريف ثم من بعده دون انقطاع.

أرى طبيبات وطنيات وممرضات كذلك (٥)، ومديرات مدارس في كل المراحل، ومديرة ادارة العلاقات الانسانية في جامعة الكويت، وأما الأستاذات الفضليات في مختلف الفروع العلمية فمحلهن ممتاز مرموق لا يحتاج الى براهين أو الى دلالة عليهن ومنهن ــ حفظهن الله ــ عميدة الكلية الانسانية راعية الحقوق والواجبات، بل هي أول عميدة بكلية حقوق في عالمنا الاسلامي المعاصر وثمة عميدة لكلية البنات الجامعية وعميدة لمركز اللغات بالجامعة ايضا، وأما حديث الجمعيات النسائية فمهما قيل في واجباتها فهى على درجة عظيمة من السمو والفضل، وخدماتها الاجتماعية قد تعدت حدود الوطن الى بلاد ودول في جميع أنحاء آسيا وافريقيا وفي بلاد أخرى غربية وشرقية، وفي بحث خاص سأترجم لكثيرات من اللاتى سرن الى جانب الرجل حذوك القذة بالقذة أدين واجبات وطنية، اجتماعية ودينية وحضارية، وأسسن المدارس وشدن المساجد ودور العبادة الحافلة بذكر الله والقرآن الكريم وكان فعلهن هذا في حدود التقاليد الاسلامية العظيمة.

كما سأحقق بعون الله تعالى مقدار أهمية المرأة المسلمة في مجتمعها تلك الأهمية التي لاينازعها فيها أحد غيرها ولاينتقص حقها في المجالات المختلفة الدافعة للحضارة الزاهرة في كل زمان الا مكابرا أو موتوراً، ونسأل الله لأخواتنا و بناتنا المسلمات كل توفيق في حدود دين الاسلام كما ندبهن لكل خير رب العالمين ورسوله سيد المرسلين الذى أثر عنه صلى الله عليه وسلم (انما النساء شقائق الرجال).. والله الموفق والمستعان.

---

(٥) الممرضة هى ركن الطب لاأبالغ حين أقول انها كمال عمل الجراح والطبيب بجميع تخصصاته كما سمعت هذا القول بأذنى من أعظم جراحى العالم المعاصر.. وهو حق لاريب فيه ولامبالغة.

مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

تصدر عن جامعة الكويت
نصف سنوية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات
الإسلامية

رئيس التحرير: الدكتور عجيل جاسم النشمي

تشتمل على:

- بحوث في مختلف العلوم الإسلامية.
- دراسات قضايا إسلامية معاصرة.
- مراجعات كتب شرعية معاصرة.
- فتاوى شرعية.
- تقارير وتعليقات على قضايا علمية.

الاشتراكات:-

للأفراد ٢ دينار داخل الكويت، ٧ دولارات أمريكية خارج الكويت.

للمؤسسات والشركات ١٠ دنانير داخل الكويت.
٣٥ دولارًا امريكيا خارج الكويت.

• جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير
ص.ب: ١٧٤٣٣ الخالدية
الكويت - كيفان - ت: ٨٤٧٢٦٩